

وتماظمت على الشيخ الاشجان وتقطر فؤاده فارسل لحاظه الى قاب
المعممة مفتشاً على هاوية يدفن فيها بقية حب ابوي كان جزاؤه الغدر واثار
غرام اتى بعد اوانه فسبب للفؤاد الذي حل به بدل السعادة مصائب واشجاناً
فرق الرسائل ببطء وقال بنفسه اسفي على اتعاب حماني اياها هذا الوالد
المعقوق وويل لتلك السافلة المبادي التي قدمت لي بدل حيي واخلاصي خداعا
اعظم عداوة اخف منه هولاً . والتفت الى هنري قائلاً
— ابق هنا مكاني لانني اريد ان اترأس الحملة بنفسي
— لم يا ابي تريد ان تحرمني هذا الموت الشريف
فادار القائد رأسه ليخفي دلائل خنق ظاهر ويغطي شرارة لعنة خرجت
من لحاظه رغماً عنه وعاد فقال لهنري بهدو متكاف
— هكذا يأمر الملك برسائله و...

واراد ان يتم كلامه فاخنت صوتة في صدره واندفع كالبرق الحافظ
على الاعداء منادياً جنده . هيا الى الامام
وعلا دخان البارود يحجب اولئك الشجمان عن الابصار ودوت الجبال
من رعد البنادق فاخفي صوت ويلات الحرب كلمة لعنة اخيرة خرجت من
فم القائد الشيخ الذي سقط على الارض قتيلاً فصعدت الى السماء مع نداء
القتلى وانين الجرحى المطالبين بحقوق الانسانية التائهة في بوادي الجهل
والضلال ...



الشيخ
الشيخ
الشيخ

﴿ الجزء العاشر والحادي عشر — السنة الخامسة ﴾
﴿ الاسكندرية في ٣٠ نوفمبر (ت ٢) سنة ١٩٠٢ ﴾
﴿ الموافق ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٠ ﴾

الشرف

للناس على هذا الشرف اعتماد عظيم وله بينهم اهتمام يفوق منهم كل اهتمام
حتى لقد يرتضون به ارتضاء نفوسهم بالحياة واجسادهم بالغذاء ولقد جلت
منزلته بينهم حتى اوشكوا ان يتميزوا به بعضهم عن بعض كما يتميز مجموعهم عن
عن الحيوانات ولكنهم في اعتقادهم بهذا الشرف على اختلاف كبير وتباين
كثير وذلك اتباعاً لاختلاف عقولهم وتباين افهامهم وتربياتهم
فمن الناس من يدعي ان الشرف يكون بالعلم وحده وان من كان اعلم
من سواه فهو اشرف منه نسباً واصح انتساباً الى المجد وهذه الدعوى على ما
فيها من الصدق في الظاهر لا تعد مقبولة لدى الحقيقة لان شرف العلم لا يتم
الا حيث يتم نفعه ولذلك لا يمد كل عالم شريعافاً الا اذا كان نفعه تاماً بل كثيراً
ما يكون الجاهل ادنى الى الشرف من العالم اذا لم تكن نفس العالم شريف

وتربيته قوية لان الشرف انما يقوم بحسن الاخلاق فاذا لم يكن العالم متحلياً بشيء من محاسنها لم يكن له ان يدعي الشرف بل قد يكون الجاهل الحسن الاخلاق عن طبع او تربية ادنى الى الشرف لان الدنيا تقوم بدرء المفاسد اكثر من جلب المنافع . ولهذا يتعين على كل من يريد انزال نفسه في منزلة الاشراف الحقيقية ان يروض اخلاقه باللين والاعتدال قبل ان يروض عقله بالفهم والادراك والا اذا كانت رياضته لمقله سابقة لرياضة نفسه فقد يخرج شريراً لان النفس امارة بالسوء وقد يكون ضرر العالم بما اوصله اليه العلم من الحيلة والاستنباط اشد من ضرر الجاهل لان هذا يؤذي نفسه وغيره اذية مقبولة وقد لا تكون صادرة عن قصد لعدم تكفل الفهم باصدارها وذلك يؤذي غيره فقط اذية شديدة يتكفل امتداد العلم بالامتداد فيها ولكنه لا يؤذي نفسه لانه يكون بصيراً بالاتباع واسباب النجاة في محاولته ما يفعله . وعلى الجملة فان العالم لا يكون شريفاً بعلومه وحده بل ينبغي ان يقترن علمه بدعوة نفسه وادب ضميره وبذلك يحوز منتهى الشرف من الناحيتين

ومن الناس من يدعي ان الشرف لا يكون الا حيث يكون المال على كل حال وهي دعوى صادقة في الظاهر ايضاً لان الذي يبدو من المال انه يكون سبب البذل والكرامة والابتعاد عن ذنوب الاقوال والافعال . الا ان كل هذه المحاسن التي تصدر من المال انما هي محاسن ناقصة لا يكملها الا جودة الطبع وحسن الخلق وجمال السيرة بحيث يكون الشرف عائداً الى هذه الاوصاف ولا يكون المال الا مهيئاً على اظهارها او التماذي فيها . وعلى اي حال فان شرف المال وحده لا يحسب لدى الحقيقة الا كاذباً او ناقصاً وان كان لدى الظاهر كل الشرف بعينه بل ان اولي الحكمة والرشاد او اولي

الشرف الصادق الحقيقي لا يرون اتحد الشرف والمال ممكناً بل هم يرون ان الشريف الحقيقي يصبح شيئاً ساقطة اخلاقه عائدة افعاله حين يصير ذمالاً وذلك لان المال لا يأتي على الغالب الا من حيث تذال الكرامة ويضر الغير وان ذلك اذا كان يصاب به الشريف الصادق حين يحاول الغني ويناله فكم يصاب به غير الشريف

على ان للشرف الظاهر حالات واسباباً لا تعد ولا تحصى في اعتبار الناس ولذلك لا نحاول بيانها كلها او بيان ما يحضر الذهن منها ولكن الذي نذكره هو ادعاء الشرف من طريق النسب فان هذا الادعاء يكاد ان يكون الحكم على الناس جميعهم او على من تفوتهم معرفة الشرف الحقيقي وهم اكثر الناس ولذلك نجد هذا الشرف قائماً لديهم بمنزلة لا تعادلها منزلة حتى تراهم يبذلون من شرفهم الحقيقي في سبيل محافظتهم على ذلك الشرف الوهمي وكثيراً ما نرى الواحد منهم يجوع ويعمرى وهو معزى باننا من نسل الذي كان شريفاً باغنى او انه ينتسب الى اسرة كذا وقد كان افرادها من اولي المناصب العالية وارباب الحكم العمومي . بل انه قد يكون عالماً بحقيقة الشرف ثم تنقلب عليه عادة الاعتقاد الشائع فيتوهم انه شريف عالي القدر لان ابيه كان عالماً نافماً للناس او انه كان حسن الاخلاق باهر الصفات . بل لقد جل الاعتداد بالشرف بين البرايا حتى صاروا يشترونه شراء حين لا يكون لهم مجاناً او اوثناً ولذلك كان الكثيرون منهم يبذلون ما استطاعوا ليسجل لهم بين الناس انهم منتسبون الى الانبياء العظام والاولياء الكرام وهو ما يقال انه منتشر في الشرق بالخصوص ويدل على صدق ما نقوله عن عظيم الاعتداد بالشرف والهوس به والاعتقاد بانه غذاء الارواح وعزاء النفوس

اما الشرف الحقيقي فقد بيناه بأنه يكون حيث تكون مكارم الاخلاق ومحاسن السجايا والابتعاد عن الضرر وان العلم وحده لا يكون شرفاً ذاتياً اذا لم يكن له من ذات الاخلاق معين . واما الشرف النسبي الذي يعتمد فيه على الاباء والجدود وياتمى التحلي به اعتداداً بشرف حقيقي قديم فربما يعد صادفاً في بعض الحالات بحيث يصح لك ان تعتبر شريف الخلق من كان اجداده شرفاء الاخلاق وترتكز عليه من حيث انه محمود السجية معتدل الطبع وذلك لان المرء يشبه النبات فهو يرجع الى اصله وطائفته ولو اختلف مكانه وغير الصنع فيه . فاذا رأيت فلاناً وعرفت ان اياه فلان واجداده فلان وفلان ممن سمعت بمكارم اخلاقهم ومحاسن اقوالهم وافعالهم فتق ان الرجل على شيء من ذلك ولو بدا لك بما بدا من مظاهر الفقر والضعف وسائر المنافيات للشرف الكاذب الشائع وذلك لان جرثومة الشرف او حسن الخلق لا تزال موجودة فيه منتقلة اليه من ابائه واجداده ومن اجل ذلك يقال عندنا وعند سوانا ان فلاناً ابن اصل يريدون بذلك انه شريف حقيقة وكثيراً ما يورثونه على غيره في قضاء مهمة او مصاهرة اعتداداً بصدق الارث ولو بدا الرجل لهم فقيراً او جاهلاً على خلاف المأثور عن ابائه وكل هذا من اجل انه شريف حقيقة اي ان نفسه زكية وطبعه معتدل قويم وانه قريب الى النفع بعيد عن الضرر

ولقد بسطنا كل ما بسطنا عن الشرف للدلالة على ان حقيقته لا تقوم الا بمكارم الخلق وحسن القول والعمل . وهو ما اردنا به كله ان نجمله تمهيداً لذكر الشرف في بلادنا وما يترتب على دعواه والاعتداد به من الضرر الشديد الذي قد يسوق الى ما ينافي حقيقة الشرف كما كاد يجري في فرنسا

لو لم يستدرك شرفها بعض الشرفاء من اولي الحكمة والرشاد فان تلك البلاد كانت الى عهد قريب وهي مقر الشرف المروث والمباهاة فيه حتى تبين لاشرافها ان التماذي في تقليد الشرفاء الماضين يكاد ينزع منهم الشرف الحقيقي ولذلك اعتدلوا في معتقدهم به وجريهم على مرسوماته فنجحوا واصبحوا اشرافاً حقيقيين لان طيب الاصل قد بقي لهم وزادوا عليه مالا لم يكونوا يستطيعون نيله الا من اسباب محدودة ضيقة

فقد كان اشراف فرنسا فيما مضى لا يباشرون شيئاً من الاعمال الشائعة اعتقاداً بان مباشرتها مما يهين اقدارهم ويخفض اخطارهم ولذلك لم يكونوا يحومون الا على وظائف الحكومة العالية كأن يكون الواحد منهم سفيراً او وزيراً او رئيس ديوان وكان يقتنع من ذياه بأنه شريف دون ان يحول في صدره امل لنيل منعم وزيادة ثروة بل كان اكثر ما يبذل لشرفه من ماله الاصيل حين يقل الراتب عن مبلغ الشرف في اعتقاده وبذلك كان شرفه يبقى وامواله تزول حتى يصبح فقيراً معدماً وليس له من شرفه وطيب اصله ما يقيه شر الفاقة وبالتالي ثلم الشرف بالاحتياج الى الناس

اما الان فقد اقلع اكثر اشراف فرنسا عن تلك الخطة فصار يرى منهم التاجر والبائع والمحترف والمسافر في سبيل الرزق وبهذا بقيت القاب شرفهم مصونة بمقادير اموالهم

على ان فرنسا لم تفرد في افلاعها عن تلك الخطة بل ان كل اوربا قد فعلت كذلك ولم تكن فرنسا الا مقلدة لها وبهذا أصبحت سارة ملوكها وهم تجار دون ان يمس ذلك بكرامتهم كما يدعي ابو تمام . اما بلادنا المصرية وبالتالي الشرقية بالعموم فان الاعتقاد بالشرف لا يزال مستحكماً في نفوس ابنائها الى

درجات خالفت حقيقة الشرف فترى الشريف منهم يهون عليه ان بكدي دون ان يكون صاحب دكان او ذا صنعة وذلك لاعنقاده ان المهنة مما يمتن بها العرض وتذال الكرامة وان بقاءه معدماً شريفاً خير له من ان يكون صانعاً او بائعاً وبهذا سقطت بيننا المقامات التي كانت عالية لان المال قد قل دون صونها ثم حلت مكانها مقامات متعددة جاءت لقوم من كسب المال على الطرق المحالة فارفع به القدر بما حصل عن اقتدار وبدأ الشرف الحقيقي ينمو ليصير اصلاً لفروع مستقبلة تحل محل تلك الفروع القديمة الذابلة التي ابدسها ذلك الاعتقاد الفاسد

فما احرى اشرافنا الان ان يتنبهوا لاحوالهم ويتبصروا في مقادير نفوسهم فاذا كان للواحد منهم بقية مال وكان من الاشراف الحقيقيين الذين يتجملون بمحاسن الاخلاق والصفات ثم استعان به على زراعة بنمها او تجارة يشتغل بها او حرفة يتعلمها فانه يكون مع امواله القليلة ومجده الوافر اكثر رجحاً من سواه واسرع الى النجاح من غيره لان الناس تصبح واثقة به معتمدة على نزاهته وعفة نفسه وطيب احواله او اذا كان شريفاً حقيقياً ولم يكن ذا مال ثم خالف معتقده فتعلم صناعة او خدم في تجارة فانه يبقى شريفاً ويكرن قدوة لغيره ممن يألفون الصناعات والاعمال الموممية اذ ان يشعروا بانفتهم مجدداً ويبنوا لهم شرفاً وهذا الخلق شائع جداً في الشرق كله وهو سبب فقره واضطراب اموره على الاربع

ولقد هممنا ان ننهي الى هنا مكتفين بما صورنا به الشرف وما نهينا اليه من وجوب العمل له حتى يدوم شرفاً حقيقياً ولكننا وجدنا في احدي اصحف الانكليزية خبراً عن مدينة فينا وهو وحده كاف للدلالة على ما قبح

النتائج التي يوصل اليها الاعتقاد بالشرف فانها روت انه يوجد في تلك المدينة خمسة الاف سائق للترامواي بينهم خمسون رجلاً يتشرفون برتبة البارونية واربعة كونتات واربع مائة مختلفة القاب شرفهم وهم كلهم من ذوي الاصل الطيب والنسب العريق ولكن توارثهم وتوارث ابائهم للانفخ من العمل والاشتغال بالمال القديم ليكثر او يبق على حاله قد اوصلهم الى هذه الدرجة من الفقر حتى صاروا يقودون المركبات السكرائية ويقبضون بايديهم المترفة على حديد مفاتيحها ولا يتوهمن احد ان في هذا الخبر مبالغة فان برهانه موجود لدينا لان بيننا من امراء الشرق الطاهري النسب الباهري المجد الذين كان لمس الحرير يدي شانهم قد وصل بعضهم الان الى نهاية الفقر حتى صاروا مضطرين لاحتراق كل مهنة تتفق لهم ولم يكن هذا الا لانهم كانوا كاشراف فينا المشار اليهم يأنفون من العمل ويعتقدون ان الشرف والاشتغال لا يجتمعان

فلي اشراف بلادنا ان يستدرکوا احوالهم الحاضرة والمستقبلة منذ الان وان يسيروا على موجب الحكمة الباهرة التي اودعها المتنبى قوله هذا

فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذي المجد كفه اذا حارب الاعداء المال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

